الأثر القرآني في الخطاب الديني عند رضي الدين علي ابن طاوس الحلي

أ.م.د رحيم الشريفي
جامعة بابل/ كلية الدراسات القرآنية

أ.م.د حسين علي حسين الفتلي
الكلية التربوية / بابل

الملخص

سنتناوش في هذه المُبَاحَثَةِ الاستشهادَ القرآنيّ في الخطاب الدينيّ عند عَلَم من أعلام الإماميّة عامة، ومن أعلام مدرسة الحلة خاصة، هو السيد رضيّ الدين علي بن طاوس الحليّ (ت٦٦٤هـ).

لا جرَمَ أنَّ ابن طاوُس قد أفاد من المعجم القُرآني أيّما فائدة في جلّ نصوصه، وهذه النصوص تمثّل منظومة دينية – لا نبالغ إذا قلنا: إنّها دينية خالصة – حاز القرب الإلهي فيها حيزًا وسيعًا، إذ ندَّ ذلك في أدعيته الكثيرة والمتنوعة، وكلماته الحِكَميّة، ووصاياه ورسائله الأخلاقيّة الجليلة، وهذا ما نلمحه في تلكم النصوص، وقد تجلّى الأثر القرآني فيها من نحو: المضامين الإلهيّة، والقوانين السماويّة، والثوابت العقديّة فيها، سواء أكانت نصوصًا حرفيّةً (مباشرة)، أم نصوصًا غير حرفيّة (غير مباشرة)، أم مضامين ومعاني قرآنية انسربت فيها.

وبدا لنا في ضوء ما وقفنا عليه من مدونات للسيد ابن طاوُس الحليّ، أنّ البحث يجدرُ به أنْ يكونَ في تمهيد بعنوان: (القرآن الكريم نصٌّ خالدٌ متجددٌ)، ومبحثين، الأول منهما تناولنا فيه: مكانة القرآن الكريم في أدبيات السيد رضيّ الدين ابن طاوُس الحليّ، وفي الآخر: أنساق الأثر القرآني في خطابات السيد ابن طاوُس الحليّ.

The Qur›anic Effect on Religious Discourse in the Works of Radhiyuddeen Ali ibn Tawoos Al-Hilli (d. 664 A H)

by Assistant Prof. Raheem Kareem Al-Shareefi, Ph D College of Qur'anic Studies| University of Babylon
Assistant Prof. Hussain Ali Hussain Al-Fatli, Ph D The Open University| Ministry of Education| Babylon

The present paper attempts to elucidate the Qur›anic utilization in religious discourse as adopted by Sayyid Radhiyuddeen Ali ibn Tawoos Al-Hilli(died 664 A H). This has been indicated in his various plentiful supplications, wise aphorisms, commandments and great ethical letters. This is evident in such texts, where the Qur›anic effect has been demonstrated in such notions as the Divine contents, heavenly laws, their faith constants: whether in literal(direct) texts, non-literal(indirect) texts, or Qur›anic implications and meanings infiltrated in these texts.

It has become clear to us in the light of his written records which we have studied, that the research ought to include an introduction entitled (The Glorious Qur›an, An Eternal Regenerated Text), together with two chapters: Chapter One (The Status of the Qur›an in the Literary Works of Sayyid Radhiyuddeen Ali ibn Tawoos Al-Hilli); Chapter Two: (Patterns of Qur›anic Effect in the Discourse of Radhiyuddeen Ali ibn Tawoos Al-Hilli).

التمهيد

القرآن الكريم نصّ خالدٌ متجددٌ

لا يخفى أنَّ الخطاب القرآني خطابٌ فصلٌ يسمو على الخطابات جميعها، وقد اعترف أئمة البيان من مشركي مكّة إبّان نزول الوحي بين ظَهرَانيهم بِسُمُوِّ هذا الخطاب وهيمنته، تأمّل وصف الوليد بن المغيرة كلمات القرآن، إذ قال: (واللهِ لقد سَمِعْتُ من محمدٍ كلامًا ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجنّ، وإنَّ له لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمُغْدِق)[1]، فهو الناطق الذي لا يعيا لسانه، والناصح الذي لا يَغُشُّ، والهادي الذي لا يُضلُّ، والمُحَدِّثُ الذي لا يَكْذِبُ، وما جالس هذا القرآن أحدٌ إلاّ قام عنه بزيادةٍ أو نقصان، زيادةٍ في هُدَىً، أو نقصانٍ من عمى[2].

وأَجمل بوصفِ الإمام زين العابدين عليه السلام (ت ٩٥هـ) القرآن في صحيفته السجادية، إذ قال في دعائه عند ختم القُرآن: (اللّهُمَّ إنَّك أعنتني على ختم كتابك الذي أنزلتَه نورًا وجعلته مهيمنًا على كلّ كتاب أنْزَلْتَه، وفَضَّلْتَه على كلّ حديث قَصَصته، وفرقانًا فَرَقْتَ به بين حَلالِك وحَرامِك، وقرآنًا أعْرَبْت به عن شرائع أحكامك، وكتابًا فَصَّلْتَه لعبادك تَفْصِيلاً، ووحيًا أنزلتَه على نبيك محمد صلواتك عليه وآله تنزيلا)[3]

فالقرآن الكريم هو النصُّ الخالدُ الذي يساير الزمان والمكان إلى يوم يبعثون، وهو البحر الذي لا ينضبُ ماؤُه، والشجرةُ المعطاء التي لا تيبسُ، وقد أشار الإمام الهاديّ عليه السلام إلى هذا المضمون ـ من قبل ـ فعن أبي جعفر الطوسيّ (ت ٤٦٠هـ)، قال (أخبرنا جماعة عن أبي المفضّل، قال: حدثنا أبو الحسين رجاء بن يحيى العبرتائي، قال: حدثنا يعقوب ابن السكّيت النحويّ، سألتُ أبا الحسن عليَّ بنَ مُحَمَّد ابن الرضا):

ما بـالُ القرآن لا يزداد على النشـر والدرس إلّا غضاضـةً؟ قال: إنّ اللّه (تعالى) لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لنـاسٍ دونَ نـاسٍ، فهو في كلّ زمان جديد، وعنـد كل قوم غضٌّ إلى يوم القيامة)[٤].

إنَّ هذه السـلطة البيانية العالية للنـص القُرآنـي رفعةً و ظهـورًا قد أسقطت سلطة العرب البيانية، فقد أعجز العـرب بمزايا ظهرت لهم في سُـمُو نظمه، وعُلُوّ أسـلوبه فتأمّلوا هذا النظمَ في كلّ سورة وآية، فلم يجـدوا في الجميع كلمـة ينبو بها مكانُها، ولفظة يُنْكَرُ شـأنها، أو يرى أنَّ غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحْـرى، أو أخْلَـق، بـل وجـدوا اتّساقًا ونسـقًا بهر العقول، وأعجز الجمهور[٥].

إنّ التأكيـد علـى المنظومـة الأخلاقية القرآنية العظيمة والمتحدة الأجزاء تؤدي إلى التقدم والانفتاح، والتطور الشامل والمتعدد الأبعاد وإنّ مثـل هذه الجهـود المبذولة بحثًا عن المفاهيم القرآنية الواسـعة تكشف الميادين والحقـول الخصبة لتحرك إنتـاج العلـم الدينـيّ وفاعليته، إذ يصبـح الديـن والعلـم الديني على إثرهـا منبعًـا زلالًا جاريًـا متوصلًا متجددًا باستمرار[٦].

وعمـد البيانيـون بمختلـف مرجعياتهم إلى تغلغل النص القرآني فـي بواطـن نتاجاتهـم الإبداعية، والفكريـة ليكـون مرجعية تعين المتلقـي علـى تفهـم خلفيـة النصّ المرسَل، كما تُعين المرسِل على نسج نصّه بصور مسـتجيبة عنـد القارئ المسلم[٧].

نخلـصُ من هذا إلـى أنَّ النص القرآنـي ذو أثرٍ مسـتمرٍّ وفاعلٍ في النصـوص والخطابـات والمقولات، والنظريات المتداولة منذ نزوله حتى زمننا الحاضر، فهو يشكّل حضورًا دلاليًّا، ومرتكزًا فاعلًا في مدوناتنا التداولية.

المبحث الأول: مكانة القُرْآن الكريم في أدبيات ابن طاوُس الحليّ

النصّ القرآني المصدر الأول الذي سدّد خُطى السيد ابن طاوُس الحليّ، وحدد سيرته الثقافية، فقد اتّصل بالقرآن الكريم منذ صغره، وانكب على حفظه، وتدبّره، وفهم دلالاته ومعانيه؛ لذا فقد أنكَرَ على مَنْ قدّم على كلام الله سبحانه كلامًا آخر، ولاسّيما في ما يتعلق بأصول العربية والاستشهاد لها، ونرى أنّ ابن طاوُس ـ بحسب ما وقفنا عنده من آراء القدماء ـ هو من أوائل من نبّه على أنّ القرآن الكريم والسنة المحمديّة هما الحَكَم على قواعد النحو والخطابات الكلاميّة، ولا يمكن جعلها حكمًا على الكتاب والسنة، وهي التفاتة تنمّ على عقليته الجبارة، وفهمه الثاقب في فهم العملية اللغويّة وتصوّرها من جهة، وإحاطته بالأسلوب القرآني والأسلوب الحديثيّ من جهة أخرى، قال: (إنّه قد صار ما في أيدي كثير من الذين يدعون العلم، علم اللغة العربية أصلًا وعيارًا عندهم لِما في القرآن والسنة المحمدية ﷺ وهو غلط من ذوي الألباب، فلقد كان الأليقُ بالصواب أنْ يجعلوا كلامَ اللهﷻ، وكلامَ رسوله ﷺ وخاصته ومتقدمي الصحابة من ذوي الطباع العربية المشهور بفصاحته أصلًا، وعيارًا لما يرد عليهم من اللغات، ويبطلون ما يخالفه أو يجعلونه وَجْهًا آخر على وجه التأويلات، وأمّا ما قد بلغ الأمر إليه أنّ كلامَ بدويّ جاهل بما ينطق به وشعره الذي لا حكم له هو الحُجّة، وبه تعرف المحجة؛ فشيء عجيب لا يرضى به كامل لبيب)[٨].

ومن هنا فإنّنا يجب أن نؤثر الاستعمال القرآني والخطاب الإلهي بوصفه نظمًا كلاميًّا عاليًا على الاستعمالات كافة؛ لأنّنا كما يقول الدكتور صبحي الصالح: (نجعل القرآن حكمًا على قواعد

اللغة والنحو، ولا نجعل تلك القواعد حكمًا على القرآن، فما استمد النحاة قواعدهم إلّا من القرآن بالدرجة الأولى)[٩]، وهذا الفهم لكلام اللهﷻ انعكس على خطابه الأخلاقي من جهة، وعلى سلوكه وتصرفاته من جهة أخرى.

ومن ذلك حثّه على التزام التأدب مع اللهﷻ، والابتعاد عن التأويل البعيد عن دأب القرآن ونظمه؛ ففي تعليقه و استشهاده على رأي الفرّاء القائل بأنّ (أو) بمعنى (بَلْ) في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[الصافات: ١٤٧]، يقول ابن طاوُس: (هذا تأويل كأنّه مِنْ شاك في صحة التفسير، وفي صحته في العربية فهلّا ذكر له وجهًا أو كان ترك الآية بالكلية ولا يوهم بهذا الشك الطعن على المفسرين، وإنّها مخالفة للعربية؛ وهلّا قال كما قال جَديّ أبو جعفر الطوسيّ في التأدب مع الله في تأويل هذه الآية في معنى أو ثلاثة أقوال: أنْ يكون بمعنى الواو وتقديره: إلى مائة ألف وزيادة إليهم، والثاني: أن يكون على معنى (بل) على ما قال ابن عباس، الثالث: أن يكون بمعنى الإيهام على المخاطبين فإنّه قال: أرسلناه إلى القريتين، فهذه وجوه تصون عن الذي ذكره الفرّاء، وإنْ كان يمكن أن يكون أو يزيدون على معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[سبأ: ٢٤] فيكون معناه: أنّهم يزيدون على مائة ألف أو يزيدون)[١٠].

واستشعر ابن طاوُس الحليّ كراهيةَ الدخولِ في الفتوى مستشهدًا بالقرآن الكريم، قال في وَصيته لابنه: (وأراد بعض شيوخي أنّني أُدرِّس وأُعلِّم الناس وأفتهم وأسلك سبيل الرؤساء المتقدمين فوجدت اللهﷻ يقول في القرآن الشريف لجَدِّكَ محمدﷺ صاحب المقام المنيف: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[الحاقة: ٤٤ـ٤٧]، فرأيت أنَّ هذا تهديد من ربِّ العالمين، فكرهت وخفت من الدخول في الفتوى، حذرًا من أنْ يكون فيها تقوّل عليه، وطلب رئاسة لا أُريد بها التقرب إليه، فاعتزلت عن أوائل هذا الحال قبل التلبس بما فيها من الأهوال)[١١].

وقد أبطل ابنُ طاوُس فريةَ تحريف القُرآن التي ألصقها بعض الجُهّال والمنافقين بأتباع أهل البيت عليهم السلام، والشيعة عامة، منكرًا إيّاها بجدّ وحزم، مبيّنًا أنّ الذين قالوا بهذه الفرية والمثلبة هم أنفسهم قالوا بالتحريف، وقد استدل ابن طاوُس بدليلين عقليين وواقعيين، الأول: أنَّ عثمان بن عفان قد جمع الناس على مصحف شريف، وحرق ما عداه من المصاحف، فلولا اعتراف عثمان بأنّه وقع تبديل وتغيير من الصحابة، ما كان هناك مصحف يُحْرَق، وكانت تكون متساوية.

والآخر: أنّ الإقرار بوجود القُرّاء السبعة الذين يختلفون في حروف، وإعراب وغير ذلك من القُرآن، ولولا اختلافهم ما كانوا سبعة، بل يكونون قارئًا واحدًا، وهؤلاء السبعة ليسوا من أتباع أهل البيت عليهم السلام، والشيعة خاصة، وكذلك القراء العشرة من رجالكم، وهم قد اختلفوا في حروف ومواضع كثيرة من القرآن، ومن هنا فإنّ الاختلاف جاء من غيرنا لا من أتباع أهل البيت عليهم السلام[١٢].

ونبصر استجلاء معرفة الله، واستظهارها في ضوء النصّ القُرآني، إذ قدّم لنا الخطاب القرآني المعرفة الحقيقية لله عزّ وجلّ، (لأنّ قدرةَ الله تعالى لما كانت غير محدودة في صياغة خطابه المُعْجِز، وجبَ بناءً على سمة الإطلاق هذه أنْ يردَ خطابه هذا غير محدود التأثير، وغير مقيّد الدلالة والمعنى، فتعبيره سبحانه مدٌّ لا يقاوم، فهو لا يعترف

بالحصون، ولا يُقيم وزنًا للقلاع، لأنّ ذلك التعبير العظيم لا يخترق أثرًا وتأثيرًا واستدلالاً ومنطقًا)[١٣].

وهذا ما رصدناه عند ابن طاوُس الحلّيّ في وصيته لابنه بأنّ المعرفة بالله لا تكون إلّا من الله، وبالله، وإنّه ﷻ هو الذي هدى للإيمان بمقتضى القرآن، وأنّه هو صاحب المنّة في التعريف، وأنّه لولا فضله ورحمته ما زكى من أحد في التكليف[١٤]، مستشهدًا بقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[الروم: ٣٠]، ثمّ يقول أيضًا مستشهدًا بكلام الله ﷻ: (هل ترى يا ولدي محمد أنّه يجوز لمسلم أنْ يطعن بعد هذه الدلالة المشار إليها ويسترها عمّن هو يحتاج إلى التنبيه عليها، ويعلم من ولد على الفطرة ولا يعرفه المنة عليه في تلك الهداية التي منّ الله عليها ثم يتلو ويسمع، ويعلم أنّ الله ﷻ يقول لسيد المرسلين ﷺ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[الحجرات: ١٧]، وقال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[النور: ٢١])[١٥].

ونلمح الاستشراف الجليّ لكلام الله ﷻ في رفد الخطاب الديني عند ابن طاوُس، إذ يعدّ وسيلة مهمة في بيان تجلّيات هذا الخطاب الذي هو صورة حيّة وواقعية للنص الدينيّ لديه؛ لذلك جاء الاستشهاد بكلام الله ﷻ حاضرًا في أدبيات ابن طاوُس الحليّ، من ذلك تحذيره من إساءة الظن بالله ﷻ ولاسيّما في أداء الفرائض من أجل التجريب سواء ترتّب عليها ثواب أم لم يترتّب، قال: (ثمّ لا تكن في صوم الحاجة وصلاتها كالمجرب الذي بظنه هل هذا الصوم، والصلاة يكفي في قضائها أم لا؟ فإنّ الإنسانَ ما يجرب إلّا على من يسوء ظنه به، وقد عرفت أنّ الله ﷻ قال: ﴿الظَّانِّينَ

بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾ [الفتح: ٦]، ولكن كن على ثقة كاملة من رحمة اللهﷻ الشاملة ومن كمال جوده، وإنجاز وعوده أبلغ ممّا تكون لو قصدت حاتم الجواد في طلب قيراط منه مع ما تسمعه عنه من الكرم والإرفاد، فإنَّك تقطع على التحقيق أنّه يعطيك القيراط لو طلبته لك بكل طريق، واعلم أنّ حاجتك عند الله تعالىﷻ أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، أهون وأقل من قيراط عند حاتم الذي وثقت بقصده فإيّاكَ من ترك الثقة بقصد اللهﷻ ورفده)[١٦]، فهذا كلامٌ شريف يستقي من نميره الحكماء، فإنّ القدر المشترك بين هؤلاء سوء الظن باللهﷻ؛ لأنّ المصلّي أو الصائم يقول في نفسه: أجرب هاتين الشعيرتين عسى أنْ أنال رضا اللهﷻ، وكل هذه الأمور ترجع الى سوء الظن باللّه، ولو أحسن الإنسانُ الظنّ باللّه يقينًا صادقًا لعلم أنّ اللّه مقدّرٌ له عمله.

ومن المقبوسات القرآنية المباركة التي وظّفها ابن طاوُس الحليّ في نصوصه الدينية، التي كشف فيها عن نفسه الشكور الصبور التي آلت على ذاتها التواضع للّهﷻ وللعباد، وفرضَ عليها ألّا ترتضي شكر العباد على صنيعه من أقوال وأفعال، وما دبّجَهُ ودشنه بعلمه الشريف في كتبه الكثيرة والمتنوعة، فالشكر ـ كما يرى ـ مسوق الى اللّهﷻ، قال: (فإذا انتفعت بشيء من تلك الأقوال والأعمال فاقتصر على الشكر للّهﷻ وتعظيم ذلك الجلال ولا تشتغل عنه بذكري ولا شكري؛ فيكون ذلك اشتغالًا منك بالمملوك عن المالك، ومخاطرة منك في المسالك، وتعرضًا للمهالك فإنّهﷻ قال: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾[النور:٢١]، وقالﷻ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ

ٱللَّهِ﴾[النحل: ٥٣])[١٧]، زد على ذلك معرفته بأحوال النفس الإنسانية (خيورها وشرورها) في ظل الخطابات القرآنية التي كشفت عنها والتي تمكّن ابن طاوُس الحليّ من تكشيفها واستجلائها، وسنسوق جملة من النصوص الطاوُسيّة التي كشفت عن نوازع النفس المتلجلجة غير الصبور والشكور، منها[١٨]:

أ) اختار قوم من رعايا الألباب مساعدة جنود الجهل رغبة في عاجل الدار دار الفناء والذهاب، فزالت عنهم لذّاتُهم وحياتُهم، وكانت كالسراب، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور:٣٩]، وانتهى أمرهم إلى دوام دار العذاب.

ب) أنّ في العباد مَنْ يجحد الحقّ لعناده، مع علمه بالحجة والبرهان، في قوله ﷻ ـ زيد كلامه المقدس شرفًا وسموًا ـ ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

ج) كشف ﷻ بلفظ كتابه الواضح المبين جحود بعض أهل الذمة ما عرفوه من صدق خاتم النبيين، فقال ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩].

د) كشف الحقّ ﷻ قومًا يؤمنون عمّنْ عاين العذابَ، ووعد بالرجوع إلى الصواب، ثم يجحد ما عاين ويكفر بما آمن وهم يوقنون، في قوله ﷻ ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام٢٧ ـ ٢٨]

هـ) وصف الله ﷻ بعضًا من عباده بسبب تبهتهم وخوفهم يوم يحاسبون

في قولـه جل جلاله: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾[الأنعام٢٣ ـ ٢٤].

وبرهـن ابـن طـاوُس إحاطته بالمعرفة القرآنية، وما نطق به القرآن الكريم، والسـرّ في ذلك أنَّ منشأ العلم ومناطه هو التجرّد، فلمّا تزدادُ النفس تجرّدًا تـزداد إيمانًا ويقينًا، ولاريب في أنّ من لم ترتفع عن نفسه أستار السيئات وحجب الخطيئات لم يحصـل لها التجرّد الـذي هو مناط حقيقة اليقـين، فلابُدّ من المجاهدة العظيمة في التزكية والتحلية حتى تنفتح أبواب الهداية، وتتضح سـبل المعرفة، كما قال سـبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[العنكبوت:٦٩][١٩]

قال ابـن طـاوُس مبرهنًـا إحاطته بالمعرفة القرآنيـة: (كذلك ما نطق به القرآن الشـريف مـن أنّه مريد، وكاره، وسميع وبصير، وأنّه يغضب ويرضى ويسـخط، وكل صفة ورد بها كتاب الله من كتبه الشريفة، أو صـح نقلها عن الأنبياء والأوصياء والأولياء العارفين بصفاته المقدسـة المنيفـة؛ فإنّها لا تشـبه صفاتنا ولا صفات المحدثات)[٢٠]، وقد اسـتفهم مستنكرًا حال الذين أصابهم الشكُّ والريـبُ بعـد التشـريف، والتبقير والتكشـيف فـي كتـاب الله عز وجل للمعرفـة القرآنية، قـال: (فهل بعد هذا التشريف والتكشيف شك عند من آمن بالله والقرآن الشـريف؟ إنَّ كشف الدلائل لا يمنع من الضلال الهائـل، ومـن جحـود ربِّ العالمين ومخالفة سـيد المرسـلين، ويكفي عند أهـل العقل والفضل أنّ الله جل جلاله كشـف عن المعرفة بمقـدس ذاته وصفاتـه بجميـع ما اختـص به من مقدوراته وكمال دلالاته)[٢١].

وممّا تجدر الإشـارة إليه ـ ونحن نطـوي سـطور هـذا المبحـث ـ أنّ ابن طـاوُس قـد نقل مـن الكتب

المقدسة، كالتوراة والإنجيل فضلًا عن صحف إبراهيم عليه السلام ومزامير داوود عليه السلام قال الطهراني: (نقل هذه الأناجيل دون ذكر أسماء الإنجيلين وعلّق على منقولاتهم، وقد بانَ لي من المقابلة بين هذه النصوص وبين الأناجيل أنّ نحو ثماني صفحات منقولة من (إنجيل متى) بنصوصها مع استثناء قليل مكتفيًا بالمضمون والمآل، ولم ينقل من إنجيل (لوقا) إلّا نحو سطرين فيها آية بنصها، وباقيها نقل بالمعنى، كما أورد من أنجيل (يوحنا) نحو صفحتين بنصوصها أمّا أنجيل (مرقس)، فانّه لم يذكر فيه شيئا)[٢٢].

المبحث الثاني: أنساق الأثر القرآني في خطابات ابن طاوُس الدينية.

لاجَرَم أنّ القُرآن الكريم يمثّل الطريق الأمثل، والسبيل الأسْمى لأهل الأرض نحو الفضيلة، وتحقيق مطلب الخلافة الإلهيّة، لذا وَجَبَ على الإنسان المسلم نفسه (مُتلقّي النصّ) أنْ يفهم ما في هذا النصّ المُعْجز من مضامين إلهيّة، وقوانين سماويّة، وثوابت عقديّة كي يستطيع أداء المطلب الإلهي منه، من أجل الوصول الى مرحلة التكامل المرجوّة، والنتائج المنشودة له أصلًا ومآلًا، ولكن هذا الفهم للنصّ السماويّ من الإنسان (المسلم) لا يتأتى له بمحض المصادفة، أو يقع إليه بحكم الاتّفاق؛ إذ لا بُدَّ من أسس وضوابط ومنطلقات يعتمد عليها لكي يستطيع بها بلوغ فهم ذلك الكتاب العظيم من جهة، والانشغال به استثمارًا، وتدبرًا، واستنطاقًا، وحفظًا من جهة أخرى[٢٣].

ونقطع جازمين أنّ مصباح الهدى (القرآن الكريم) قد زَهَرَ في الخطاب الدينيّ الطاوُسيّ، ويكفي المتأمل مندوحة أنْ يقف على قسم من نصوصه الدينية، ليرى الاستثمار

والاستشراف، بكتاب الله عزّ وجلّ القرآن الكريم، وقد تنوعت تقنيات الاقتباسات، وتلوَّنَتْ وهي تمثّل أنساقًا و أنماطًا من الأثر القرآنيّ في أدب ابن طاوُس الحليّ.

ومن الحقيق بالذكر أنّ الدكتور مشتاق عباس مَعْن قد اعترض على مصطلح (الأثر القُرآني)، الذي يمثل مصفوفة من مصفوفات الإفادة من كلام الله عزّ وجلّ، (الاقتباس، والتضمين، والتناص، والتناص القرآني)، بلحاظ أنَّ قضية الأثر القرآني والتأثير القرآني تعني أنَّ النص الدينيّ يؤثر في النص القُرآني، وأنّ القرآن الكريم يؤثر في النصّ الدينيّ فتطفو على السطح هذه الإشكاليّة التي تمسّ النص القرآني، ومن هنا نجده قد ابتكر مصطلح (القُرآنيّة)، وهي آليّة من الآليات التي يتوسّل بها المبدع في تشكيل الإبداعيّة من جهة الرؤى و الأنساق بنية وإيقاعًا بحسب سياق القرآن الكريم[٢٤].

وعَوْدٌ على بَدْء، فقد تحصّل لنا في ضوء ما وقفنا عنده من نصوص دينيّة عند ابن طاوُس الحليّ أنّ الأثر القرآني قد تشكّل على هيأة أنساق ثلاثة، هي:

أولًا: الأثر القُرآني النصّي (المباشر)

هذا النّسق يتجلّى في ظلّ الاستثمار القُرْآني الحَرْفيّ النصيّ المباشر، بمعنى الاستشهاد بالنص القُرآني مباشرة على قضية عقدية، أو تشريعية (فقهيّة)، أو أخلاقيّة، أو اجتماعيّة، أو تربويّة، وغيرها.

قال ابن طاوُس: (فقلت على لسان سيد المرسلين فيما تضمنه القرآن المَصُون وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّه لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ)[٢٥]، فهو تناص مباشر مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقال: (وبالمراحم والمكارم التي

أنكرت بها على القانطين فقلت (جلّ جلالك): وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)[٢٦]، فهو تناص مباشر مع قوله تعالى:﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦].

ونَبْصر الأثر القرآني المباشر في مقدمة كتابه: (جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع)، مُدلًّا على إمامة أهل البيت عليهم السلام من لدن الله عز وجل، ورسوله الأعظم صلى الله عليه وآله، قال: (وأشهد أنَّ جدي محمدًا صلى الله عليه وآله عبده ورسوله وأفضل من أخبر عنه، وأشهد أنَّ اختلاف طبائع العباد لا يستغنى أبدًا عن نائب بينهم في البلاد، يوقظهم من وبيل الرقاد ويسلك بهم سبيل الرشاد، تصديقًا لقوله جل جلاله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[الرعد:٧])[٢٧]

وقال: (وبالمراحم والمكارم التي وصلت إلى إبليس وفرعون، ومَنْ علمت أنّه مصرّ على ما يسخطك عليه إلى أن يحضر في القيامة بين يديك، وبالمراحم والمكارم التي أدركت بها إبليس في الساعة التي بسط بها كفّ سؤاله وقصدك بآماله في حال غضبك عليه وبعده منك، وإعراضك عنه وإعراضه عنك، وقال: اجعلني من المنظرين فوسعته رحمتك يا أرحم الراحمين، وقلت فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)[٢٨]، فهو تناص مباشر مع قوله تعالى:﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۞ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر: ٣٨]، وقال (وَكِلْهم إلى حولهم وقوتهم، وأبرئهم من حولك وقوتك، وخُذْهم بياتًا وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون)[٢٩]، فهو تناص مباشر مع قوله تعالى:﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧] وقوله تعالى: ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾[الأعراف: ٩٨]

ثانيًا: الأثر القُرْآني غير النَّصيّ (غير المباشر)

من الأنماط القُرآنية التي وظّفها ابن طاوُس الحليّ في النص الدينيّ

الاستعمال القُرآني غير المباشر وهو استثمار قرآنيّ غير نصّي، بمعنى أنّ النصّ القُرآني قد وُظّفَ توظيفًا غير مباشرٍ، فنلمح التقديم والتأخير في ألفاظه من جهة، والاكتفاء بكلمات محوريّة في النص المقبوس، وما إلى ذلك.

ففي دعاء العبرات الذي ندّ من لسان ابن طاوُس، نجده يُقْسِمُ بالمراحم في ثلاثين موضعًا، قال: (وبالمراحم والمكارم التي اقتضت الابتداء بالنوال قبل السؤال وبعد السؤال وعند السؤال وبالمراحم والمكارم التي أنكرت بها الآيسين... وبالمراحم والمكارم التي أخرت بها عقوبة الكافرين والمشركين والمتمردين والمتشردين والمنافقين والفاسقين)[٣٠]

ولا يخفى أنّ ابن طاوُس قد أقسم بالمراحم والمكارم، استشرافًا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾[النساء:١]، وقوله تعالى:﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦] وقوله تعالى:﴿ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾[يس:٢٧]...

وقال ابن طاوُس: (رب يا غوث المستغيثين، ويا مجيب دعوة المضطرين يا أرحم الراحمين يا أرحم الراحمين يا أرحم الراحمين يا أرحم الراحمين يا أرحم الراحمين)[٣١] استشرافًا واستيحاءً بقوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[النمل: ٦٢]، وقال ابن طاوُس: (وعرفنا قدر النعمة علينا بتعجيل إجابتك وتكميل رحمتك وأوزعنا شكر ذلك بحولك وقوتك، يا خير الناصرين، ويا صاحب الوعود بإجابة الداعين، ومن مدح نفسه المقدسة بصرف السوء عن المظلومين، واحفظ فينا وصيتك، ووصية سيد المرسلين، وعترته الطاهرين واحفظنا بما حفظت به كنز

أصحاب الجدار لأجل من حفظته به من سلفهم الصالحين، فقد عرضنا حاجتنا على أبوابك بيد بوابك ونحن الضعفاء المترقبون لما أنت أهله من جوابك، وأنت أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، والحمد لله كما أنت أهله يا ربَّ العالمين)[٣٢]، فقد استثمر ابن طاوُس قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[الأعراف:٥٦] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾[النمل: ١٩]

ثالثًا: الأثر القرآني المتضمّن (المفاهيم والدلالات)

في ظلّ استقراء تراث ابن طاوُس وأدبه، نجد نفثات من دلالات القرآن الكريم، ظاهرةً على خطابه الدينيّ، رحم الله ابن طاوُس لقد كان في خطابه الدينيّ حركة الغوّاص الرائد الذي لا يقف على السطح، ولا يستقر عند القاع، فمعانيه القرآنية تقطر وتفيض، والقرآن الكريم (من جهة الأدب غاية الجمال، ومن جهة الفضيلة غاية الخير، ومن جهة الفلسفة غاية الحق)[٣٣].

ويتجلى هذا الأثر، ويزهر في كثير من نصوص ابن طاوُس الدينيّة، ويكاد يكون النسق الأبرز، والنمط الغالب في الأثر القُرآني، إذ نجد المفاهيم القرآنيّة، والدلالات المضمونيّة القرآنيّة حاضرة فيها، ويبدو أنّ قُرب ابن طاوُس من كتاب الله عزّ وجلّ قراءةً وفهمًا وحفظًا قد جعله يستثمر هذا الأثر العظيم، وقد عبر هو عن هذا التعالُق والتواشُج بكلام الله جلّ جلاله، قال: (وها أنا ذا أمتثلُ مقدّس مراسمك في التعرض لما وعدتَ من مراحمك واثقًا بشهادة العقول أنّ الكريم الجواد إذا أَذِن في السؤال، ووعد بالقبول، فإنّه ينزّه كماله عن التوقف في المسؤول به، وهو قادر على بلوغ المأمول)[٣٤].

تأمَّل معنا استشرافه لحادثة هداية سحرة فرعون، بوساطة اللطف

الإلهي، فشملتهم الهداية الربانية، والعاقبة الإلهية الرحيمية، قال ابن طاوُس: (وبالمراحم والمكارم التي ابتدأت بها سحرة فرعون وما عرفوك ولا طلبوك ولا تعرضوا لرحمتك ولا تعرضوا لإجابتك)[٣٥]، استيحاءً من قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[الأعراف:١٢١ـ١٢٢]، واستثمارًا واستشرافًا لهداية أهل مكة ممّن شملتهم الرحمة الإلهية، والعناية الربانية في تخلصهم من الكفر والضلال الى التوحيد والسعادة والهداية والعاقبة الحسنة، قال ابن طاوُس: (وبالمراحم والمكارم التي ابتدأت بها أمم الأنبياء وأمته صلى الله عليه وآله وقد كانوا على عظيم من الكفر والطغيان والعصيان واستحقاق العذاب والهوان)[٣٦]، استشرافًا لقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَاۖ وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الاعراف: ٤٣] وقد استوحى رمزية الدعاء والاستغفار في إنقاذ أقوام الأنبياء كما في هداية قوم إدريس، ويونس عليهما السلام، قال ابن طاوُس: (وبالمراحم والمكارم التي أجبت بها قوم إدريس وقوم يونس، ومَنْ كان على نحو سوء أعمالهم، وقد غضبت عليهم أنبياؤهم وتوعدوهم بما يستحقونه من نكالهم، وأشرفوا على الهلاك وعجزوا عن الاستدراك، فرحمت شكواهم وكشفت بلواهم)[٣٧]، وهو استيحاء من قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

ونَلْمحُ حقيقةَ خَلْقِ الإنسان وتكوينه في الخطاب الديني الطاوُسيّ في ضوء الفَهم الواعي والباصر لكتاب الله عز وجل، قال: (أحمَدُ الله جلّ جلاله الذي أيقظَ ذوي ألسنة من أهل الوجود بألسنة الفضل والكرم والجود، وعلَّم

العبد المخلوق من التراب حتى تكلّم بمحكم الآداب على منابر الصواب... وكان عظمه عريانًا فكساه لحمًا من نعمته)[٣٨]، إذ استوحى ابن طاوُس المضامين القرآنية الآتية، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]

وكذلك رمزيّة اللقاء بين يوسف عليه السلام وأبيه يعقوب عليه السلام بعد اليأس من اللُّقيا، وفي ذلك إشارة الى أنّ الدعاء والاستغفار يهدمان القضاء والقدر هَدْمًا، قال ابن طاوُس: (وبالمراحم والمكارم التي جمعت بها شمل يوسف ويعقوب)[٣٩] وهو استشراف لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وتتعالى هذه الدلالات والمعاني القرآنية، وتشرق في خطابه الدينيّ، كما هو الحال في قوله: (وبالمراحم والمكارم التي كشفت بها كربات أيوب)[٤٠]، فهو تناص مباشر مع قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[ص: ٤٤]، وخلاص يونس عليه السلام من الحوت واليمّ، قال: (وبالمراحم والمكارم التي خلصت بها يونس بن متى من بطن حوته ويمّه)[٤١]، فهو تناص مباشر مع قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧].

وجمع موسى عليه السلام بأمه، قال: (وبالمراحم والمكارم التي جمعت بها شمل موسى بأمه)[٤٢]، استشرافًا بقوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه:٤٠]، ونصر عيسى عليه السلام على قومه، قال: (وبالمراحم والمكارم التي نصرت بها عيسى على قومه)[٤٣]، استثمارًا واستشرافًا لقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾[النساء: ١٥٧].

ويتعالى الاستيحاء القرآني في قوله: (وبالمراحمِ والمكارمِ التي نَصَرْت بها محمدًا وعليًا على أحزاب الكفار، ووقيتهما من الأخطار وجعلتهما عَلَمًا لك إلى دار القرار)[٤٤]، استيحاءً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾[التحريم: ٨].

ويتجلى الفيض الإلهي ويشرف في هذا الدعاء الروحانيّ العرفانيّ، قال: (احفظْ فينا وصيتك، ووصية سيد المرسلين وعترته الطاهرين، واحفظنا بما حفظت به كنز أصحاب الجدار لأجل من حفظته به من سلفهم الصالحين، فقد عرضنا حاجتنا على أبوابك بيد بوابك ونحن الضعفاء المترقبون لما أنت أهله من جوابك، وأنت أرحم الراحمين)[٤٥].

تبارك الله عز وجل ما أبلغ حكمه وأجل شأنه تجلّت معارفه، وفاضت نعماؤه في هذا الدعاء المبارك، فظهرت دلالاته جليّة في هذا القرب الإلهي المتصل، تأمل إشاراته الى الكنز الذي حفظه الله ليتيمين كان أباهما صالحًا، قال ابن طاوُس: (واحفظنا بما حفظت به كنز أصحاب الجدار؛ لأجل من حَفِظْتَه به

من سلفهم الصالحين)[٤٦]، فهو تناص مباشر مع قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[الكهف: ٨٢].

لقد كان من المنطقيّ في هذا السياق أنْ تصوَّرَ القرآن الكريم في الأطروحات العقائدية العنيفة التي شغلت الناس آنذاك، فالإسلام في ضوء النص الديني كان يقدّم نفسه بوصفه الحقّ الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت: ٤٢]، وذلك لأنّه بإيجاز شديد هو اليقين الموحى به من ربِّ العالمين، لا الاجتهاد الذي أدى إليه فكرُ المتفكرين، وقد قدّم القرآن بوصفه لاهوتًا عربيًّا حقيقيًّا، أو هو التجلّي الأخير لهذا اللاهوت حلولًا مجودّة لكلّ ما كان اليهود والنصارى يختلفون فيه من مشكلات عقائدية، وقد قدم القرآن حلولًا بأنْ أرسى بناء التصورات الأساسية للألوهية والنبوة، وهو ما ورد في آي القرآن الكريم على نحو قصصيّ آسر في بلاغته[٤٧].

ومن هنا فإنّ ابن طاوُس الحليّ في ظل ذوبانه في كتاب الله ﷻ حفظًا وتدبرًا وفهمًا قد وعى وصف القرآن؛ لما قدّمه من سير الأنبياء بأنّه (أحسن القصص) مستعملًا في ذلك (أفعل التفضيل)، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[يوسف: ٣]، وفي ذلك إشارة لازمة بحسب (مفهوم الموافقة) أي قصص أخرى أقل حسنًا، وأضعف بيانًا، ومن القصص الأخرى والحكايات التوراتية عن الأنبياء، والروايات الإنجيلية عن السيد المسيح عليه السلام، (ومن السور القرآنية الطوال خصوصًا المكيّة

منها، مثل سور: القصص، مريم، إبراهيم، يوسف، يونس، هود، وغيرهم، قدَّمَ الإسلام سيرة أخرى لمعظم أنبياء التوراة الذين هم أنبياء اليهود الأوائل، بعدها أعاد رسم شخصياتهم بما يناسب مكانتهم، وبما لا تُستنتج من صفات إلهية كتلك التي يمكن استنباطها من القصص التوراتية)[٤٨].

وقبل أن نغادر هذا المطلب، يخطر لنا أمرٌ حول رؤيّة ابن طاوُس الحليّ للنص القرآنيّ بوصفه مصونًا من الزيادة والنقصان كما يقتضيه العقل والشرع[٤٩].

فقد برهن بالأدلة القاطعة النقلية والعقلية أنّ القُرآن مصون من التحريف، والزيادة والنقصان، وما قيل: إنّ الرافضة تدّعي نقصان القرآن وتبديله وتغييره هو محض افتراء، وسوء فَهْم يُرَدُّ على المدّعين، وقد ردّ على الجُبَّائي في مقالة برهانية طاوُسيّة قَلَّما يجود الزمان بمثلها في ردّ الشبهة التي حكيت على أتباع أهل البيت عليهم السلام وقد اتخذها بعض المؤلفين مثلبة عليهم، على الرغم من أنّ أعلام الشيعة أنكروها بجدٍّ وإخلاص قرنًا بعد قرنٍ[٥٠].

وقد ذكر ابن طاوُس الحليّ أكثر من سبعة وجوه في ردِّ هذه الفريّة ذكرها في تفسيره (سعد السعود)[٥١].

ويؤيد قول ابن طاوُس الحليّ بتماميّة القرآن، وعدم وقوع التحريف فيه زيادة ونقصًا، نقده اللاذع، وعتبه القادح على أبي عليّ الجبائي في أنّه زاد في تفسيره ما لا يدلّ اللفظ عليه، ولا المعنى عليه، فما بالك في الزيادة وغيرها في الآيات الكريمات؟ ونقل الطَبْرسيّ قول الجُبّائيّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ

﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[طـه: ١٣٢]، قـال: (فإنّما عنـى به أنْ مُـرْ أهل دينك، وأهل بيتك بالصـلاة التي تعبَّدكم الله بها واصطبر على أدائها والقيام بهـا)[٥٢]، قال ابن طـاوُس رادًّا على قـول الجبّائـيّ: (ألَا تعجب من رجل مسـلمٍ يُصنِّـفُ كتابًـا يعـرفُ أنّه يقف عليه مَـنْ يطّلع عليه على مرور الأوقات يعمّـه مثل هذه التعصبات، والمحالات بـالله تعالى، هَلْ تَرَى في الآية وأمر أهـل دينك في ظاهرها، أو معناها، أو حَوْلها أو ما يجدُ هذا تعصبًا قبيحًـا لا يليق بذوي الألباب المصدّقـين بيـوم الحسـاب؟، أتراه لـو اقتصر علـى أنّه يأمـر أهله عليهم السلام بالصلاة أُسوةً بساير مَنْ بعث إليه، ما الـذي كان ينخرم؟، وينفذ على الجبائي حتّى يَبْلُـغَ به الحال إلى أن يزيد في القُرآن ما لا يدلُّ اللفظ ولا المعنى عليه)[٥٣]

وآخر دعوانـا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

خاتمة البحث ونتائجه

أولًا: بدا لنا أنَّ ابن طاوُس الحليّ قد اسـتثمر المعجمَ القرآنيَّ في أدبه الدينـيِّ، إذ اتصـل بكتاب الله عزّ وجلّ منذ صغـره حفظًا وفهمًـا وتدبرًا، مما جعله يُنْكـرُ على مَنْ قدَّم على كلام الله عزّ وجلّ كلامًـا آخر، ويرى أنّ القـرآن الكريم والسـنة النبويّة المطهرة هما أصـل القواعد النحويّة واللغويّة، فيجب عرض هذه القواعد على كتـاب الله عزّ وجلّ، لا العكس، وهـو ملمح إعجازي يـرى أنّ القرآن الكـريم هـو أصـل قواعـد اللغة العربية كافةً.

ثانيًـا: تنوعـت أنسـاق الأثـر القرآني في النص الديني الطاوُسيّ، فنجد الأثر القرآني المباشـر، وغير المباشـر، والضمنيّ، وهـذا التنوع يـدلّ علـى ذوبـان ابن طـاوُس في كتاب الله عزّ وجلّ.

ثالثًـا: فطن ابن طـاوُس الحليّ

لقضيــة تحريــف القُــرآن، وتبديله التــي ألصقها المنافقــون بأتباع أهل البيــت عليهم السلام، والشــيعة عامــة، وقد ردّ هذه الفريّــة والمثلبة بردود عقلية ومنطقيــة وواقعية، إذ أبان أنّ الذين قالوا بها هم أنفسهم قالوا بالتحريف والتبديل والتغيير.

رابعًــا: في ضــوء رصدنا للأثر القُرآني في النص الديني الطاوُسي تجلّــى لنــا أنّ نســق الأثــر القرآني الضمنــي أي (المفاهيــم والدلالات) قد شــغل حيزًا واســعًا في أدب ابن طاوُس الدينــيّ، وهو ملمــحٌ أدائي وأســلوبي يظهــر مدى اتصــال ابن طاوُس بكتــاب الله عزّ وجلّ، وتمكنه الباصر منه فهمًا وتدبرًا واستنطاقًا.

وآخر دعوانــا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى الله على محمد وآله الأطيبين الأنجبين.

الهوامش:

(١) سيرة ابن هشام: ١ / ٢٧٠.

(٢) ينظر: نهج البلاغة: ٣٤٥.

(٣) الصحيفة السجادية الكاملة: ١٣٩- ١٤٠

(٤) أمالي الطوسي: ٢ / ١٩٣.

(٥) ينظر: دلائل الاعجاز: ٢٨.

(٦) ينظر: فلسفة مرجعية القرآن المعرفية في إنتاج المعرفة الدينية: ٥٧.

(٧) ينظر: تأصيل النص (قراءة في أيديلوجيا التناص): ١٦٨.

(٨) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٣٤

(٩) مباحث في علوم القرآن: ١٦٣، وينظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع قواعد نحويّة هامة، محمد عبدالرحيم صافي: ١/ ٧٨

(١٠) سعد السعود: ٦١٠.

(١١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٣٤

(١٢) ينظر: سعد السعود: ٦٦٤.

(١٣) قراءات لغويّة في النص القرآني (دراسة في النقد التفسيري): ٢-٣.

(١٤) ينظر: كشف المحجة لثمرة المهجة: ١١.

(١٥) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١١

(١٦) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٢٠٧.

(١٧) فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم

والليلة: ٥٥. النور/ ٢١، النحل / ٥٣.

(١٨) ينظر: اليقين: ٨٧-٨٨.

(١٩) ينظر،: جامع السعادات: ١ / ٤٧.

(٢٠) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١١.

(٢١) اليقين باختصاص مولانا علي عليه السلام بإمرة أمير المؤمنين، والتحصين لأسرار ما زاد من أخبار اليقين: ١١٩.

(٢٢) طبقات أعلام الشيعة: ١١٧.

(٢٣) ينظر: تأريخ القرآن وعلومه: ٢، ومناهج تفسير النص القرآني: ٧٠ ـ ٧١.

(٢٤) ينظر: تأصيل النص (قراءة في ايديلوجيا التناصّ): ١٦٩ ـ ١٧٠، والقرآنيّة في نهج البلاغة (بحث): ١١.

(٢٥) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٢٧.

(٢٦) المصدر نفسه: ٣٢٨.

(٢٧) جمال الاسبوع بكمال العمل المشروع: ١٧.

(٢٨) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٢٨.

(٢٩) المصدر نفسه: ٣٣٠

(٣٠) المصدر نفسه: ٣٢٦ـ٣٢٧.

(٣١) مهج الدعوات ومنهج العنايات : ٣٢٩.

(٣٢) مهج الدعوات ومنهج العنايات : ٣٣١.

(٣٣) وحي الرسالة : ١/ ٤٤٢.

(٣٤) مهج الدعوات ومنهج العنايات: ٣٢٦-٣٢٧.

(٣٥) المصدر نفسه: ٣٢٧.

(٣٦) مهج الدعوات ومنهج العنايات: ٣٢٧.

(٣٧) مهج الدعوات ومنهج العنايات: ٣٢٧.

(٣٨) جمال الاسبوع بكمال العمل المشروع: ١٥.

(٣٩) مهج الدعوات ومنهج العنايات: ٣٢٧.

(٤٠) المصدر نفسه: ٣٢٨.

(٤١) مهج الدعوات ومنهج العنايات: ٣٢٨.

(٤٢) المصدر نفسه: ٣٢٨.

(٤٣) المصدر نفسه: ٣٢٨.

(٤٤) المصدر نفسه: ٣٢٨.

(٤٥) المصدر نفسه: ٣٣١.

(٤٦) المصدر نفسه: ٣٣٢ .

(٤٧) اللاهوت الدينيّ وأصول العنف الديني: ١٣٩ – ١٤٠.

(٤٨) اللاهوت العربي وأصول العنف الديني: ١٤٠.

(٤٩) ينظر: سعد السعود: ٤٦٧.

(٥٠) ينظر: النص الخالد لَمْ و لنْ يُحَرّف أبدًا: ١٣.

(٥١) ينظر: سعد السعود : ٢٩١ – ٢٩٣.

(٥٢) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧ / ٣٧.

(٥٣) سعد السعود: ٤٢٠.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم
* الأمالي، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، ط١، دار الثقافة، ١٤١٤هـ.
* تأريخ القرآن وعلومه، الدكتور سيروان عبدالزهرة الجنابيّ، ط١، دار الأمير، النجف الأشرف، ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م
* تأصيل النص قراءة في أيديولوجيا التناص، الدكتور مشتاق عباس مَعْن، ط١، مركز عبادي للدراسات، صنعاء، اليمن، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.
* جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
* الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة، محمود صافي، دار الرشيد ـ دمشق، ١٩٩٥م.
* جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع، السيد علي بن موسى بن طاوُس، جواد قيومي الأصفهاني، مؤسسة الآفاق، ط١، ١٣٧١هـ.
* الدروع الواقية، رضي الدين السيد علي بن موسى بن طاوُس، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ١٣٧٢هـ.
* دلائل الاعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن الجرجانيّ (ت ٤٧٤هـ)، ط٥، الشركة الدولية للطباعة، ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٤م.
* سعد السعود، ابن طاوُس، منشورات الرضي، مطبعة أمير، قم، ١٣٦٣هـ.
* السيرة النبوية (سيرة ابن هشام)، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافريّ (ت ٢١٣هـ)، تحقيق الشيخ أحمد جاد، ط١، دار الغد الجديد، المنصورة، ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣م.
* الصحيفة السجادية الكاملة، الامام زين العابدين، ط١، بيروت، ١٣٨٧ ـ ١٩٦٤ م.
* طبقات أعلام الشيعة: أغا بزرك الطهراني، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ١٤٣٠ هـ
* فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم والليلة، ابن طاوُس، رضي الدين علي بن موسى بن جعفر الحسني، تحقيق غلا محيسن المجيدي، دار جواد الأئمة عليهم السلام للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٣٢ ـ ٢٠١٢ م.
* فلسفة الأخلاق في الإسلام، محمد جواد مغنية، دار الجواد، بيروت، ط٢، ١٩٨٤ م.
* فلسفة مرجعية القرآن المعرفية في إنتاج المعرفة الدينية، نجف علي ميرزائي، ترجمة: د. دلال عباس، مركز الحضارة

لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدراسات القرآنية، بيروت، ٢٠٠٨ م.

* قراءات لغويّة في النص القرآني (دراسة في النقد التفسيري)، الدكتور سيروان عبد الزهرة الجنابي، ط١، دار الأمير، النجف الأشرف، ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م.
* كشف المحجة لثمرة المهجة، رضي الدين ابن طاوُس، تحقيق: الشيخ محمّد الحسّون، ط ٣، ١٤٣٠هـ.
* اللاهوت الدينيّ وأصول العنف الدّيني، يوسف زيدان، ط ٣، دار الشروق، مصر، ٢٠١٠ م.
* مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، ط١٠، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧ م.
* مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل الحسن الطبرسيّ، ط٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥ م.
* مناهج تفسير النص القرآني، الدكتور سيروان عبدالزهرة الجنابي، ط١، دار الأمير، النجف الأشرف، ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م.
* مهج الدعوات ومنهج العنايات، رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر ابن محمد بن طاوُس الحسني (٦٦٤هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.
* نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام (ت٤٠هـ)، وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضي، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي صالح، منشورات دار الهجرة، (د. ت).
* وحي الرسالة (فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع)، أحمد حسن الزيّات، ط ٨، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٣ م.
* اليقين باختصاص مولانا علي عليه السلام بإمرة أمير المؤمنين، والتحصين لأسرار ما زاد من أخبار اليقين، تحقيق محمد باقر الأنصاري، ومحمد صادق الأنصاري، ط١، مؤسسة الثقلين لإحياء التراث الإسلامي، بيروت، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩ م.

البحوث والدراسات

* القُرآنية في نهج البلاغة، م. م. علي ذياب محيي العبادي، مجلة العميد، العدد (٦) المجلد (٤)، العتبة العباسية المقدّسة، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣ م.

الدليل العقلي في الاستنباط الفقهي عند المحقق الحلي

الشيخ حسن جمشيدي
باحث في مؤسسة جهاد دانشگاهي في مشهد

ترجمة حسن الحلي
باحث ومترجم في جامعة المصطفى العالمية في مشهد

الملخص

نظراً لأهمية الدليل العقلي في استنباط الأحكام الشرعية ولاسيّما في المسائل المستحدثة، فإنّ البحث في آثار الفقهاء يساعدنا في الإفادة على النحو الأحسن منه، وفي هذا الموضوع ينبغي البحث عن طريقة المحقّق الحلّي الفقهية؛ لأنّه الفقيه المؤثّر في تنمية المباحث الفقهية، ولأجل ذلك قرّرنا دراسة المتون الفقهية الاستدلالية والأصولية للمحقّق الحلّي. وتبيّن لنا من خلال هذه الدراسة أنّ المحقّق قد أفاد من الدليل العقلي في وجوب اتّباع الكتاب والسنة الشريفة. وقد ارتضى المحقّق كون العقل دليلاً تشريعياً مستقلاً يحكم بالوجوب أو الحرمة، وقد يقوم العقل بهذه الوظيفة باستعانة من الشرع، وقد عدّ المحقّق العقل داركاً لحكم خطاب الشارع، وافاد منه بعنوان المخصّص للعمومات الشرعية، وقد أعطى المحقّق للدليل العقلي دوراً لإثبات حجية سائر الأدلّة كالخبر الواحد، وعَدَّ أصل الاستصحاب من الأدلة العقلية .